القرآن الكريم
طريقنا لتجاوز العجز الحضاري

أ.د. وجدان فريق عناد
مركز احياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد - العراق

ملخص البحث

يبدو من خلال هذا البحث أن الإسلام والمسلمين يمرون بمرحلة تاريخية مهمة زُرعتْ فيها بذور الإعلان عن مرحلة مقبلة للعالم الإسلامي، يحتاجون فيها إلى التغيير والإفادة من عِبَر التاريخ، لبناء إرادة إسلامية منهجها القرآن لتكون قادرة على جعل المسلمين متمكنين من رفض الهيمنة واستمرار المقاومة.

ولابد أن يعمل المسلمون على توعية المعجبين بالحضارة الغربية خاصة، بأن الإسلام من أكثر الديانات دعوة إلى التسامح والسلام والأخوة العالمية .

كما تقرر السيدة الباحثة أن الإسلام يؤمن بالحوار ويرى فيه جسور التواصل بين العالم، أما الصراع فهو نهاية العالم.

وتستنتج: أن القرآن الكريم خطاب أزلي صالح لكل زمان ومكان، وان في آياته مفاتيح لكنوز العلوم والنظريات في كل مجال. ففي دلالة الآيات المذكورة والتي استشهدت بها معانٍ صريحة وحثٌّ على الدعوة للحوار بين البشر.

المقدمة

في عالم السياسة اليوم نظريتا صراع الحضارات وحوار الحضارات، وكلتا النظريتين تبحثان في مستقبل ومصير الحضارة الغربية. والذي يهمنا من هاتين النظريتين نظرتها إلى العالم الإسلامي، إذ ترى الأولى أن العالم الإسلامي خطر يهدد الحضارة الغربية وسيكون سبباً في انهيارها، والثانية ترى فيه خير مثل يمكن أن يحتذى من أجل أن تستطيع تلك الحضارة أن تدوم مدة أطول.

ويبدو أن الاهتمام بالعالم الإسلامي يأتي من كون أن القرآن الذي هو دستور المسلمين قد جعل من العرب والمسلمين أمة ذات حضارة لا يزال أثرها باقيا، وهي حية قادرة على التعامل مع كافة الحضارات التي انطوت تحت لوائها، وفيه أقدم دعوة للحوار بين الحضارات، عندما خاطب الله تعالى البشر بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[سورة الحجرات: ١٣].

وبعد أن أصاب الضعف تلك الحضارة، وتقدمت الحضارة الغربية، فإن بعض مفكري الحضارة الغربية، ومنهم (صموئيل هنتنغتون) أخذ يبحث في الأسباب التي تهدد حضارته بالانهيار، فتوصل إلى أن العالم الإسلامي سيكون سبباً أساسياً في سقوطها وانهيارها، لأنه يرى أن الحضارة الإسلامية، هي من الحضارات المتحدية للحضارة الغربية، التي ستكون في صراع معها في المستقبل، والذي ستكون نتيجته أساسية للتطور التاريخي.

فالإسلام هو العدو الأول الذي تخشى منه الحضارة الغربية، لأن القرآن الذي رسم منهج حياة متكاملة، متى ما سار عليه المسلمون فأنه كفيل بأن يجعل منهم قوة قادرة على التنافس والتفوق على الحضارة الغربية، لأنه سيحقق الاستقلال السياسي الذي يحررهم من الهيمنة الغربية الاقتصادية والعسكرية، وعندها ستنهض الحضارة الإسلامية ويتضاءل شأن الحضارة الغربية.

وهذا البحث يخوض في حيثيات نظرية صراع الحضارات وكيفية رؤيتها للإسلام كونه يشكل الخطر الأول على الحضارة الغربية، وكيف أن القرآن قد وضع منهاج للمسلمين لتجاوز العجز الحضاري الذي يعيشه العالم الإسلامي، وهو السبيل الأنجع للمسلمين للارتقاء بحضارتهم ذات الصبغة الإنسانية البعيدة عن الدعوة لصِدام مع الحضارات الأخرى، بل إن أقدم دعوه للحوار والتفاعل الايجابي بالحضارات والشعوب الأخرى نادى بها القرآن الكريم.

نظرية صِدام الحضارات وموقع الإسلام فيها:

في العام ١٩٩٦ صدر كتاب "صِدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي" لمؤلفه صاموئيل هنتنغتون، و فكرة الكتاب الأساسية هي أن الثقافة أو الهوية الحضارية هي الأساس في تشكيل نماذج التماسك والتفكك والصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة. وإن أكثر الصراعات انتشاراً وأهمية وخطورة ستكون بين شعوب تنتمي إلى هويات ثقافية مختلفة، وإن هذا الصراع حتمي، لأنه سيكون ليس بين القوى العظمى، ولكن بين الحضارات التي يقسمها هنتنغتون على ثلاثة أصناف، والذي يهمنا منها هي الحضارات المتحدِّية، وهي الحضارتان الإسلامية والصينية، والعلاقة بين الحضارتين المتحدية والغربية، هي أن العلاقات بينهما تكون متوترة ومشدودة، وفي الأعم الأغلب عدائية. فالإسلام في نظره هو العدو الأول، لأنه يرى أن الإحياء الإسلامي قد أعطى المسلمين الثقة في أهمية حضارتهم وقيمهم، مقارنة بالحضارة الغربية[1].

لقد شغلت هذه النظرية المثقفين فصدرت حولها تعليقات مؤيدة لها أو ضدها، وبما أن العرب هم أكثر المستهدفين في هذه النظرية، بل إن نصف الكتاب تقريباً يتحدث عنهم، والسبب في ذلك أن صاحبها يرى أن توازن

(١) صاموئيل هنتنغتون، صِدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد أبو شهيوه ومحمود محمد خلف، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية للتوزيع والنشر والإعلان، مصراته، ١٩٩٩، ص١٤ وما بعدها.

القوى بين الحضارات سائر نحو التغيير، فالحضارة الغربية تتراجع في نفوذها النسبي والحضارات الآسيوية تسير نحو التقدم والتوسع في قواعدها الاقتصادية والعسكرية والسياسية، والإسلام يتفجر سكانياً، الأمر الذي يؤدي إلى عدم الاستقرار للدول الإسلامية وجاراتها والحضارات غير الغربية بشكل عام، وهي الآن ترى أن ثقافاتها ذات قيمة عالية.

أما الحضارة الغربية فإن أطروحتها العالمية تجعلها في صراع مع الحضارات الأخرى، وبشكل أكثر خطورة مع الإسلام والصين، والذي يهمنا في بحثنا هذا هو الإسلام. ذلك أن كل العلماء الكبار يعترفون بوجود حضارة إسلامية متميزة، ولدى بروزها في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي، انتشر الإسلام بسرعة عبر شمال أفريقيا وشبه الجزيرة الأيبيرية وكذلك شرقا إلى شبه القارة الهندية وجنوب شرقي آسيا، ونتيجة لتوسع الرقعة السياسية وجدت ثقافات اخرى متميزة أو فروع حضارية داخل الإسلام، بما في ذلك العرب والأتراك والفرس والملاويين[٢].

ففيما يتعلق بالحركات الاسلاموية (المنسوبة الى الاسلامي) التي يسميها هنتنغتون بالإحياء الإسلامي، فان هذه الحركات، في الوطن العربي خاصة، والإسلامي عامة، يجب النظر إليها بأنها استجابة للمشكلات الجارية في مجتمعاتها في الحياة اليومية، ومنها الدولة التسلطية، والتحضر السريع، والتغيرات الاجتماعية والثقافية والتعليمية، وحقيقة التبعية وتخلف الدولة وضعفها، هي الأسباب وراء ذلك الإحياء.

يبقى الإسلام والمسلمون العدوَّ الأولَ الذي يريد أن يكرسه هنتنغتون في أذهان مجتمعات الحضارة الغربية وخطراً حقيقيا، لأن الشعوب الإسلامية تحاول البحث عن مشروع حضاري، يكون الإسلام جوهره، والمعطيات الحضارية العالمية أساسه، لذا يرى أن الإسلام وحضارته يشكل تهديداً للحضارة الغربية[٣].

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٨.
(٣)المرجع نفسه، ص ٤٩.

فنظرية (صِدام الحضارات) تؤمن بمركزية الحضارة الغربية، والانحياز ثقافياً وقيمياً الى تلك الحضارة ومصالحها الإستراتيجية السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية، فهي تؤمن بالمصالح الغربية فقط، وتجعل للإسلام « حدوداً دامية »، وأن الإسلام مرتبط بالعنف منذ ظهوره، وأن تاريخ الإسلام كله صراع وعنف مع أطرافه الخارجية، وبين أقسامه الداخلية. فهذه النظرية محاولة لإقناع الغرب بأن المسلمين يتحدون الغرب، وقد اختار هنتنغتون أمثلة وأحداثاً بطريقة انتقائية، وفسرها بالشكل الذي يجعلها متلائمة مع أفكاره ونتائجه، مع العلم أن أفكاره وتحليلاته متناقضة [٤].

نظرية حوار الحضارات وموقع الإسلام منها:

المفكر الفرنسي (روجيه غارودي) صاحب كتاب «من أجل حوار بين الحضارات» يعد من الرواد في إطلاق هذا المصطلح، وهو باختصار يدعو المفكرين والسياسيين الذين يعيشون في كنف الحضارة الغربية إلى الإفادة من الحضارة العربية الإسلامية، لأنها برأيه تمكنت من أن تمتد من بحر الصين إلى المحيط الأطلسي في مدة زمنية قصيرة نسبياً. ويرى أن السبب وراء ذلك: «أن العرب حملوا معهم أشكالاً أسمى وأرفع من التنظيم الاقتصادي والاجتماعي، فانضمت إليهم جماهير الناس في عالم يمارس الاستعباد ويقف في أوج التحلل».

كما إنه أراد أن يقدم للحضارة الغربية شهادة تتمثل في أن الحوار بين الحضارات هو السبيل الوحيد لميلاد مشروع كوني لاختراع المستقبل. وإن الحضارة العربية الإسلامية هي الوحيدة التي تمكنت من مد جسور الحوار بين الحضارات التي أنضوت تحت لوائها، فهو يقول: إنه يرغب أن يقدم شهادة «عن تجربة عالمية عن فرحة الثراء الإنساني الذي مكنتني منه ثقافات غير غربية ورجال من آسيا

(٤) المرجع نفسه، ص٦١. ينظر كذلك: حميد حمد السعدون، الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٢، ص٨٤.

ومن ديار الإسلام ومن أفريقيا وأمريكا اللاتينية، أن أقدم شهادة عما بحثت عنه، واعتقد أنني اكتشفته من طابع إلهي في كل واحدة من تلك الثقافات، وفي كل واحد من أولئك الرجال»[٥].

وهو يرى أن هناك حاجة ماسة لاستعراض التاريخ بمنظار لا تشوهه أوهام الاستعمار الغربي ولا تبقى أوروبا وحدها مركز جاذبيته، فهو يقدم صورة عن مساهمة الحضارة الإسلامية في التقدم الإنساني، وما تنطوي عليه من قيم عظيمة، فهي تقدم الدواء الشافي لما يعانيه البشر في عصرنا هذا من قلق واضطراب وتدهور[٦].

لقد وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة في العام ٢٠٠٠ على اقتراح الدكتور محمد خاتمي رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية السابق بشأن تسمية العام ٢٠٠١ بعام الحوار بين الحضارات، فعقدت من اجل ذلك المؤتمرات لدراسة آليات الحوار، ومعالجة جوانبه المتشابكة والمعقدة ونقد الحركات العالمية والأحداث الدولية على وفق قاعدة الحوار لتكون قيمة أساسية للمجتمع البشري. وهناك دعوات كثيرة ليكون الحوار وإحلال السلام والتعايش السلمي هو القيمة العليا بدلاً من النعرات العنصرية والمذهبية والطائفية، وذلك من أجل الوقوف بوجه القوى التي تتخذ من الحرب وسيلة لفرض نظام عالمي على كل البشر، وتأطيرهم بإطار سياسي واحد[٧].

وباختصار فإن الحوار بين الحضارات يدعو إلى البحث عن المبادئ المشتركة بين الحضارات الإنسانية في ماهيتها ومداها، بأنها تتصل أصلاً وفرعاً ومسلكاً ومضموناً جملة وتفصيلاً بالشأن الإنساني. إنها أصول فكرية أفرزتها خبرة البشر وذكّرت بها النبوءات في مختلف الثقافات

(٥) روجيه غارودي، من أجل حوار بين الحضارات، ترجمة محمد حديد، الطبعة الثانية، د.م، د. ت، ص٣٤.

(٦) ستار جبار الجابري، أي حوار نريد، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد، العدد الرابع، حزيران -٢٠٠٧، ص٣٣.

(٧) محمد خاقاني، أصولنا في حوار الحضارات، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد، العدد الثالث، آذار -نيسان -٢٠٠٧، ص ٥.

والحضارات عبر العصور

حقيقة قرآنية:

إن القرآن الكريم سبق غارودي بما يزيد على أربعة عشر قرناً في الدعوة إلى الحوار الإنساني البناء حينما خاطب الله تعالى الناس بقوله -تعالى- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٨] [سورة الحجرات: ١٣]، وهذه دعوة صريحة من القرآن الكريم في كيفية التعامل مع الشعوب الأخرى، فالإسلام يدعو إلى احترام الأقوام الأخرى وعدم التعامل معهم بالتعالي عليهم والغرور[٩].

(٨) ينظر في تفسير الآية: الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت القرن السادس الهجري). مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، ج١٣، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ، ص١٣٤؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت٧٧٤هـ). تفسير القران العظيم، ج٤، دار احياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٩، ص٢١٧.

(٩) محمد العربي الخطابي، من أجل حوار بين الحضارات، مجلة المناهل، العدد العاشر، السنة الرابعة، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م، ص٣٩-٤٠.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[١٠] [سورة ال عمران: ٦٤].

فهو خطاب عالمي يتجاوز المنطقة التي ظهر فيها الإسلام ويتجاوز العرق البشري الذي انتمى إليه نبي الإسلام بالتصريح بكونه رحمة للعالمين، فالإسلام يرى العالم كله لله، وأن الله تعالى سخر العالم كله للبشر. قال -تعالى -: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١١] [سورة الجاثية: ١٣].

ومن خلال ذلك المنطلق الذي أساسه منهج القرآن في كيفية التعامل مع الشعوب والأقوام الأخرى، استطاعت الحضارة العربية الإسلامية في نشأتها وأوج ازدهارها أن تستفيد من حضارة

(١٠) الطبرسي، المصدر السابق، ٢/ ٤٥٤.

(١١) ينظر:- الطبرسي، المصدر السابق، ٩/ ٧٣ ؛ حميد مجيد هدو، كمال الحيدري قراءة في السيرة والمنهج، ج٢، مؤسسة الهدى، ٢٠١١، ص٩٨١.

تلك الشعوب، فعرفت تلك الحضارة ثراءً فكريا وروحياً لم يكن له مثيل[١٢].

فالقرآن الكريم يدعو المسلمين إلى نشر الدعوة الإسلامية وإيصال كلمة الحق إلى الناس جميعاً، ويدعوهم إلى إقامة المحبة والدعوة بالحكمة ويرفض التقليد في العقيدة والإكراه في الاعتناق، ويدعو إلى الانفتاح والتفاعل مع الآخر بغض النظر عن العقيدة والجنس واللون واللغة، بعيدا عن الاستعلاء القومي ومحاولة إلغاء الآخر وإذابته وتجريده من خصوصياته ونهب خيراته وثرواته، إنما القرآن يأمر المسلمين بالرحمة وإخراج الناس من الظلم، وأساس الدعوة لابد أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، واعتماد البراهين والأدلة، متبعين اليسر واللين ورفض الإكراه والتعنيف والتجريح[١٣].

(١٢) محمد العربي الخطابي، المرجع السابق، ص٤٠.

(١٣) غازي سعيد سليمان، المنهج الإسلامي في التعايش السلمي مع غير المسلمين، مطبعة هيئة إدارة واستثمار الوقف السني، بغداد، ٢٠٠٩، ص ٧٣ - ٧٤.

واقع العالم الإسلامي:

لقد مر العالم الإسلامي بحقب تراجع فيها المسلمون عن قيمهم المثلى، وانغلقوا على انفسهم، ومن تلك الحقب، القرن الثالث الهجري، إذ كان المسلمون يخوضون في مناقشات عديمة الجدوى، أخرتهم عن بناء الحضارة الإسلامية، فلولا تلك المناقشات العقيمة -منها مسألة خلق القران -لبلغت الحضارة والعلوم الإسلامية مستوى أكثر تقدما مما بلغته بعد ذلك، فعلى سبيل المثال فإن الثورة الصناعية في أوروبا، كانت مقومات نشوئها متوافرة لدى الحضارة الإسلامية في ذلك القرن[١٤].

وعلى العموم، ففي الوقت الذي نهض الغرب فيه لاكتساب العلوم والكشف عن أسرار العالم، بقي المجتمع الإسلامي في ركوده وتخلفه عن الغرب، متناسياً تحديات العصر، ثم أدركت الأمة الإسلامية خسارتها الكبيرة في ركونها وخضوعها، وفي تفتت قيمها وكيانها، فبدأت دعوات

(١٤) محمد تقي المدرسي، القرآن حكمة الحياة، قم، ٢٠٠٧، ص١٧٩.

تظهر في أنحاء المجتمع الإسلامي من أجل أن يستفيق المسلمون من سباتهم، ويفهموا خطر الموقف في الوضع الراهن وفي عصر العولمة[١٥].

هذا هو حال العالم الإسلامي، قبل أن تصحو الأمة الإسلامية لتجد مجتمعاتها تعاني من أفكار متخلفة لا تمت إلى الإسلام بصله، وهذه الأفكار كانت نتيجة فلسفات دخلت في كيان الأمة الإسلامية[١٦].

والسؤال الذي يطرح نفسه؟

ما السبيل كي تتمكن الأمة الإسلامية من النهوض من جديد، لتستعيد مكانتها العالمية، مادامت تتمتع بتلك الإمكانات التي تجعل نظرية صراع الحضارات ترى أنها تهدد وجود الحضارة الغربية ؟ وانها هي المؤهلة لقيادة العالم لأنها تمتلك البعد الإنساني والتجربة التاريخية الناجحة في التعامل مع الأقوام والشعوب الأخرى على وفق رؤية (نظرية حوار الحضارات).

ويبدو أن الجواب الوافي يكون في القرآن الكريم، لأنه متى ما سارت الأمة الإسلامية على منهج القرآن الكريم، فإن التمزق والتخلف سينتهي، وتحلّ محله الوحدة الإسلامية، وبالتالي تتحقق النهضة العلمية التي تجعل العالم الإسلامي قوة عظمى، وهذا ما تخشاه نظرية صِدامِ الحضارات.

"إن خلاصنا يكمن في القرآن لأنه يمنحنا ما نحرك به أسباب التقدم في أنفسنا، وما ينظف فطرتنا، ويعيدنا إليها بسلام"[١٧].

القران هو السبيل إلى تجاوز العجز الحضاري:

القران الكريم ليس مثل الكتب السماوية الأخرى التي امتدت إليها يد التحريف من حذف وإضافة، بل هو كتاب الحياة سواء الحياة الدنيا أم الآخرة، لأن الحكمة القرآنية لا تفصل بين الحياتين، بل إن احدهما تكمل الأخرى، فالقرآن منهج وبرنامج الهي ينظم الحياة وشؤونها لتعد الإنسان في النهاية لاستقبال الحياة

(١٥) محمد خاقاني، المرجع السابق، ص ٨.
(١٦) محمد تقي المدرسي، المرجع السابق، ص١٨٢ - ١٨٣.
(١٧) محمد تقي المدرسي، المرجع نفسه، ص١٨٣.

الأخرى، وهو منبع الحكمة، وفيه ضالة الإنسان في البحث عن السعادة، والأمن، والسلام، والعيش الهانئ. لذلك فأن الإيمان بالله وخشيته ومعرفته، هي رأس كل حكمة، وبالتالي رأس كل فضيلة، ومنها تنحدر سائر الحكم[18].

إن الوجه الحضاري للحياة يتمثل في أن تؤطر بالحرية والكرامة والاستقلال، ومن اجل بلوغ معالم الحضارة تلك، فمن الأجدى بالإنسان أن تكون حركته من منطلق الحكمة والوعي، وان يتخلق بالأخلاق الإيمانية، الأمر الذي يقوده إلى مبتغاه الحضاري في العيش بحياة حرة كريمة، وبدون ذلك فأنه سيبقى في التخلف، والتبعية، والخضوع للآخرين. ولكي تتحقق تلك الأهداف الحضارية فان القرآن يحدد الطريق لذلك بخطوات هي[19]:

أولا: التغير: على المسلمين الذين يطمحون إلى التغير أن يدركوا أن البداية تبدأ من قوله تعالى ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[20] [سورة الرعد: ١١]. فلكي يكون المسلمون سائرين نحو التقدم والازدهار. والحياة الحرة وتكون بيدهم القوة، لابد أن يتحركوا ويغيروا ما بانفسهم بالشكل الذي لا يدع الآخرين يسيطرون عليهم ويفرضوا أنواع الهيمنة أيا كانت: فكرية، ثقافية، اجتماعية أو اقتصادية. .. الخ. ومن الحقائق أن طبيعة الإنسان وفطرته تكون في حركة مستمرة نحو التكامل لقوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[21] [سورة التين: ٤].

ثانيا: التوكل على الله: أي إن المسلمين في مسيرتهم لبناء الحضارة الإسلامية، عليهم أن يضعوا أمام أعينهم حقيقة: أن الشيء الوحيد الذي يخشونه هو الله،

(١٨) محمد تقي المدرسي، المرجع السابق، ص١٥١ وما بعدها.

(١٩) حميد حمد السعدون، المرجع السابق، ص٤٥.

(٢٠) ينظر: الطبرسي، المصدر السابق، ٥/ ٢٧٩؛ د. حميد مجيد هدو، المرجع السابق، ج٢/ ص٩٧٧.

(٢١) الطبرسي، المصدر السابق، ٦/ ٥١٠.

وان هذه الصفة هي التي تقود إلى العزة والكرامة والاستقلالية، والآيات القرآنية الكريمة في ذلك كثيرة منها: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[٢٢] [سورة الطلاق: ٣].

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢٣] [سورة التوبة: ٥١].

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٢٤] [سورة آل عمران: ١٥٩]. ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[٢٥] [سورة الملك: ٢٩].

ومن صور التوكل قول كلمة الحق، وان لا يخشى في ذلك لومة لائم، ولا من عواقبها، لان الله سيكون سنده، لأن الشجاعة التي تأتي من التوكل هي سر النجاح في الحياة[٢٦].

ثالثا: التاريخ: فالقرآن ومن خلال القصص يدعونا إلى أن نتفكر فيه، ويعطينا درسا مهما، هو التمعن بالتاريخ ومظاهر الصراع التي كانت، وكيف انتهت بانتصار الأتقياء والصالحين. فالتاريخ ينفع في أخذ العبر لبناء مستقبل مشرق، وذلك بالابتعاد عن أخطاء الماضي. «فالحياة تفيض بالعبر، والدروس، والتاريخ مدرسة كبرى، ومعلم خبير، ونحن لم نصل إلى ما وصلنا إليه منقطعين، ومنفصلين عن تلك المدرسة وهذا المعلم، فلقد مضت قبلنا آلاف من السنين كان خلالها أناس، وكانت أمم وصراع، ومعاناة تفوق ما نراه الآن آلاف المرات...»[٢٧].

لأن الذي يستلهم العبر من تلك المدرسة سوف يكون قوياً ولن يهتز، أو

(٢٢) الطبرسي، المصدر السابق، ٩/ ٣٠٢.
(٢٣) الطبرسي، المصدر نفسه، ٥/ ٣٦.
(٢٤) الطبرسي، المصدر نفسه، ٢/ ٥٢٦.
(٢٥) الطبرسي، المصدر نفسه، ٩/ ٣٢٨.
(٢٦) محمد تقي المدرسي، المرجع السابق، ص١٥٩.
(٢٧) محمد تقي المدرسي، المرجع نفسه، ص ١٦٧ - ١٧٠.

ينهزم عند مواجهة المشاكل، والعكس سيكون حال من لا يهتم بالتاريخ، لأنه لا يعرف كيف يعالج المصائب، ولكي تعطي قراءة التاريخ جدواها، فلابد أن تتم عن طريق قراءة القران وتلاوته والتدبر في آياته، وقصصه[٢٨].

والدين الإسلامي منذ نزول الوحي على النبي محمد ﷺ هو دين الحوار والاستفهام والدلالة الحسية والعقلية، بل إن اللغة القرآنية كانت إعجازاً في لغة الحوار[٢٩].

وللحضارة الإسلامية في حوارها مع الحضارات الأخرى مبادئ رسمها القرآن، هي[٣٠]:

أولاً: الإيمان بالحقيقة.

ثانياً: عدم ادعاء احتكار الحقيقة في جانب واحد.

ثالثاً: الاقتناع بأن هناك أخذ وعطاء بين الحضارات والمدارس الفكرية.

رابعاً: الخضوع والاستسلام للحقيقة بعد أن يظهرها الحوار.

كما أن للحضارة الإسلامية مبادئ للتعارف مع الآخر وفق المنهج القرآني هي:

أولاً: معرفة الآخر التي هي من الأمور المهمة التي يُبنَى عليها التعارف، ويدخل في ذلك معرفة لغة الآخر، معرفة أهدافه وخططه، معرفة إمكانات وطاقات وايجابيات وعلوم ومعارف الآخر[٣١].

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾.

ثانيا: الاعتراف بالآخر، ويعني الاعتراف بالتنوع والاختلاف الحاصل بأمر الله، وأن المنهج القرآني يقوم على أساس الاعتراف بالآخر المختلف، والإقرار بوجوده والحوار معه، وليس إلغاءه وتهميشه، وعدم الاعتراف به. ولهذا

(٢٨) عبد الرحمن حللي، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٨٩، بديع الزمان سعيد النورسي، المعجزات القرآنية، ترجمة احسان قاسم الصالحي، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٩٠، ص٢١٤ -وما بعدها.

(٢٩) حميد حمد السعدون، المرجع السابق، ص ٦٧.

(٣٠) محمد خاقاني، المرجع السابق، ص١٣.

(٣١) غازي، المرجع السابق، ص٨٠ -٨٣.

ففي القرآن آيات كثيرة فيها حوار مطول مع المشركين وأهل الكتاب وحتى مع الشيطان، فالقرآن رسم لنا المنهج الحواري القائم على الاحترام للإنسانية والشعور والخصوصية، ومحاولة الإقناع واستخدام الحجج والبراهين وعدم الإكراه والحرية في الاختيار[٣٢]، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[٣٣][سورة الكهف: ٢٩].

ثالثا: التعاون مع الآخر في ميدان المشتركات -التعاون الذي فيه خير للبشرية جمعاء مبدأ قراني أصيل ومبدأ عام في كل الجماعات الإنسانية والقرآن يأمر بالتعاون ليس مع المسلم فقط، وإنما بالتعاون مع غير المسلم بشرط أن يكون الهدف خدمة البشرية ودفع الظلم وتحقيق مصلحة عامة[٣٤]. وقد قرر القران الكريم ذلك بقوله: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[٣٥][سورة المائدة: ٢].

أسلوب الحوار الإسلامي:

لقد حدَّ القران أسلوب الحوار ولغته، بأن تكون بالحسنى. وذلك في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[٣٦][سورة العنكبوت: ٤٦].

إن الحوار الذي اعتمده الإسلام، هو حوار راق وحضاري وإنساني، ومن الآيات التي توضح احترام الله وأنبيائه لشكل الحوار والفهم المشترك مع اقرب الناس إليه: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣٧] [سورة المائدة: ١١٢].

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ

(٣٢) المرجع نفسه، ص٨٢ -٨٣.
(٣٣) الطبرسي، المصدر السابق، ٦/ ٤١٤.
(٣٤) غازي، المرجع السابق، ص٨٣ -٨٤.
(٣٥) الطبرسي، المصدر السابق، ٣/ ١٥٢.
(٣٦) الطبرسي، المصدر نفسه، ٧/ ٢٨٦.
(٣٧) الطبرسي، المصدر نفسه، ٣/ ٢٦٣.

﴿أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٣٨] [سورة البقرة: ٦٧].

والأسبق لذلك أن الإسلام جعل الحوار مع الله سبحانه مباشر. قال-تعالى- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٣٩] [سورة البقرة: ١٨٦].

كما نلاحظ أهمية الحوار من التحية التي يستعملها المسلم لأي شخص أخر والتي تبدأ بسلام عليكم فالسلام لغة حوار وقناعة[٤٠].

فالقرآن يرى في الحوار الحضاري مطلباً مهماً لإدامة الحياة لأن صِدام الحضارات هو نهاية العالم، وان الحوار الحضاري هو جسر التواصل الحقيقي لاستمرار الحياة»[٤١].

لذلك فالقرآن الكريم بدعوته الى حوار الحضارات ينطلق من قاعدة أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس من شعوب وقبائل وجعل التواصل والتعارف قاعدة للتعامل فيما بينهم، وهو بهذا يرتب لمبدا مهم هو مبدأ الأخوة الإنسانية والعدالة ومبدأ التعارف والتواصل والتعاون، فالإسلام ينظم العلاقات الإنسانية على أساس الوحدة الإنسانية الجامعة لا على أساس المظاهر المفرقة و منها التعصب، الغنى، الفقر، الجهل، والعلم، فالقرآن الكريم أقر بوجود الأخوة الإنسانية المشتركة بين البشر إلى جانب إقراره بالأخوة الخاصة بين المؤمنين، فالعلاقات والروابط بين المسلمين وغيرهم قاعدة للحياة، وأكد الإسلام المساوة بين النوع الإنساني في الخلق بعيدا عن الجنس والعرق واللون، ويجب مراعاة المساواة التامة بين البشر، وإن الاختلاف بين الأجناس والألوان والألسنة يجب أن يكون سبب في دعم الاتصال والتعارف والتآلف بين البشر، والتعاون في مجال القضايا المشتركة

(٣٨) الطبرسي، المصدر السابق، ١/ ١٣٠.
(٣٩) الطبرسي، المصدر نفسه، ٢/ ٢٧٧.
(٤٠) ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ٦٨ ؛ غازي، المرجع السابق، ص٨٧.
(٤١) حميد حمد السعدون، المرجع السابق، ص٦٧.

وتبادل الاحتياجات، وليس سبيلا للتناحر والتنافر والتنازع[٤٢].

ومن هنا جاء قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٤٣] [سورة الحجرات: ١٣]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[٤٤] [سورة الروم: ٢٢].

واختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى الذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويترك، والمسلم يوقن بأن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب، كما إنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه، ولهذا لا يفكر المسلم يوما في أن يجبر الناس ليكونوا كلهم مسلمين[٤٥].

إن الاختلاف والتنوع واقع في الدين والجنس والعنصر واللغة واللون، وإن هذا الاختلاف هو آية من آيات الله، ودليل على عظمته وكبريائه سبحانه، وإن الحكمة من وراء هذا الاختلاف والتنوع هي التعارف بين الناس لا التنافر، والتعاون لا التباغض، والتنافس في الخير لا الشر[٤٦].

وإن القرآن الذي يدعو إلى الحوار والتعايش هدفه ليس العجز أو الضعف أو المهادنة، لأنه يضع حدا فاصلا بين الحوار والتعايش والتسامح، النابع من الثقة بالنفس والاعتزاز بالقيم الإسلامية، وبين التذويب النابع من التقليد والإمَّعِيَّة[٤٧]، وذلك من قوله تعالى ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[٤٨] [سورة القلم: ٨ -٩].

إن القرآن الكريم خطاب أزلي، وميزة هذا الخطاب انه موجه إلى كل طبقات البشر وفي كل العصور، وان خطابه مباشر، وانه

(٤٢) غازي، المرجع السابق.، ص٤٠.
(٤٣) الطبرسي، المصدر السابق، ٩/ ١٣٤.
(٤٤) الطبرسي، المصدر نفسه، ٧/ ٢٩٩.
(٤٥) غازي، المرجع السابق، ص٥٤.
(٤٦) غازي، المرجع نفسه، ص٥٤ -٥٥
(٤٧) غازي، المرجع نفسه، ص ٧١
(٤٨) الطبرسي، المصدر السابق، ١٠/ ٣٣١.

خطاب يمتاز بالشبابية لأنه ينظر إلى كل العصور المختلفة في الأفكار والمتباينة في الطبائع، نظرا كأنه خاص بذلك العصر ووفق مقتضياته، إن كل قوانين البشر تهرم وتتغير وتتبدل، إلا أحكامَ القرآن وقوانينَهُ فلها من الثبات والرسوخ بحيث أن متانتها تظهر كلما مرت العصور[٤٩].

متى تكون نهضة الحضارة الإسلامية:

لا يمكن أن تكون تلك النهضة بين ليلةٍ وضحاها، أو بعبارة أخرى، لا يمكن أن تكون بسرعة، لأنها ليست مرتبطة بزوال نظام معين، بل مرتبطة بالمسلمين ورغبتهم في قيادة زمام الحضارة من جديد، والسير على منهج القران الكريم لتحقيق الصحوة الإسلامية ذات البعد الإنساني، فهي غير مقتصرة على نظام أو بلد، وهي آخذة في الاتساع، الأمر الذي دفع السياسيين الغربيين لأن يبحثوا بكل وسيلة ليتصدوا للمد الإسلامي، إذ اعتنق الكثير من الأوربيين الإسلام، ولاسيما في الأوساط العلمية والسياسية والصحافية. لأن تلك الشعوب التي تعيش في كنف الحضارة الغربية تعاني من فراغ روحي حيث انتشار الفساد، وضياع المفاهيم والقيم الإنسانية، لذلك أصبح هناك توجه لدى تلك الشعوب نحو الإسلام، والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا تأخر المسلمون عن ركب الحضارة الإنسانية ؟

وربما يكون الجواب في أن المسلمين الذين كانوا حَمَلَةَ مشعل التقدم، انشغلوا بالخلاف والجدل العقيم الذي من ورائه نتيجة ـ كما ذكرنا سابقا[٥٠].

إن القرآن الكريم يدعو إلى الوحدة والاتفاق والابتعاد عن التفرقة والاختلاف، مع الإيمان بوجود الاختلاف والتنوع على أنه سنة إلهية واقعة بمشيئة الله، والقرآن رسم منهجاً واضحاً للتعامل مع الاختلاف والتنوع هو التعارف والتسابق في الخيرات والسعي لطلب الخير والحق وعدم الإكراه[٥١].

(٤٩) بديع الزمان، المرجع السابق، ص٩٠.

(٥٠) محمد تقي المدرسي، المرجع السابق، ص١٧٩.

(٥١) غازي، المرجع السابق، ص.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١- ادوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨١.

٢- بديع الزمان سعيد النورسى، المعجزات القرآنية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، مطبعة الرشيد، بغداد، ١٩٩٠.

٣- حميد حمد السعدون، الغرب والإسلام والصراع الحضاري، دار وائل للطباعة والنشر، عمان، ٢٠٠٢، ص٨٤

٤- حميد مجيد هدو، السيد كمال الحيدري سيرته منهجه آثاره، ج٢، مؤسسة الهدى، ٢٠١١.

٥- روجيه غارودي، من أجل حوار بين الحضارات، ترجمة محمد حديد، الطبعة الثانية، د.م، ٢٠٠٠، ص ٣٤

٦- ستار جبار الجابري، أي حوار نريد، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد، العدد الرابع، حزيران -٢٠٠٧.

٧- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت القرن السادس الهجري). مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي، دار أحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٨- صاموئيل هنتنغتون، صِدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد أبو شهيوه ومحمود محمد خلف، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية للتوزيع والنشر والإعلان، مصراته، ١٩٩٩.

٩- عبد الرحمن حللي، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٨٩.

١٠- محمد العربي الخطابي، من أجل حوار

بين الحضارات، مجلة المناهل، العدد العاشر، السنة الرابعة، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م، ص ٣٩

١١- محمد تقي المدرسي (آية الله العظمى)، القرآن حكمة الحياة، قم، ٢٠٠٧.

١٢- محمد خاقاني، أصولنا في حوار الحضارات، مجلة المرصد الدولي، مركز الدراسات الدولية -جامعة بغداد، العدد الثالث، آذار-نيسان ٢٠٠٧، ص٥.